



مجلة العاصمة

المجلد الثالث، ٢٠١١

مجلة مسجلة لدى المسجل للجرائد في الهند (RNI) برقم KERARA00011
ومجلة معتمدة لدى جامعة كيرالا، الهند



قسم العربية، كلية الجامعة، ترونتيرم، كيرالا، الهند، ٦٩٥٠٣٤

السيرة الذاتية : ضوابط الصدق وحدوده في كتابتها

د/ م. زين الدين

أستاذ مشارك ورئيس قسم العربية، كلية الجامعة، تروننبرام، كيرالا، الهند

السيرة الذاتية تكون فنا من أجمل فنون الأدب وأكثرها قبولا ورواجا، وأصبحت فنا يزداد الاهتمام به في العصر الحاضر، إذ يقبل عليه القراء إقبالا شديدا. عنصر الصدق مطلب عزيز في السيرة الذاتية، فإذا ما استطاع الكاتب جهده أن يلتزم به في حدود المنطق والعقل، كانت السيرة الذاتية بحق أصدق الفنون الأدبية تصويرا للإنسان^١. والسيرة الذاتية تتضمن معلومات فيها جانب كبير من الصدق، لأن الشخصية الرئيسية في السيرة تظهر كشاهد على الأحداث التي تسجل، ولا يستطيع أن يروي التجربة سوى من عاناها. فشكل السيرة الذاتية إذا ليس هو مشبهة الحياة حرفيا، وإنما هو فيض استعاري معقد والسيرة الذاتية خير مظهر للتعبير عن مفهوم الصدق الفني، أي أصالة الكاتب في تعبيره، ورجوعه فيه إلى ذات نفسه لا إلى العبارات التقليدية المحفوظة. ومسكين هو كاتب السيرة الذاتية فهو في معظم الأحوال في موضوع الاتهام، بأنه يفتر فيما يكتبه عن نفسه إلى الصدق والصراحة، وذلك لأن ذاكرته ذات مواقف إيجابية إزاء أحداث الماضي، ولها قوة خلاقة تعمل دوما على التغيير، وهي متسلطة متحيزة، فتختار بوعي أو بدون وعي- وقانع وذكريات تريدها، وتنتقي أطرافا منها، وتطرح أطرافا أخرى قد تكون ذات أهمية في حياة الإنسان فتلقى عليها أستارا كثيفة... ولذا فإن المترجم لذاته يصبح أحيانا كثيرة متهما بافتقاره إلى الصدق والصراحة^٢.

أما الشكليون فيرون أن مسألة الصدق والإخلاص لا مكان لها في المناقشة الأدبية، فالسيرة الذاتية على الأخص، تتطلب الصدق الخلفي أيضا. وقد بسط عبد العزيز شرف شرط الصدق الفني في السيرة بربطه بأصالة الكاتب في تعبيره عن ذاته. فالسيرة الذاتية تتبع من تجربة حقيقة، ولكنها حينما تخضع لمنطق العمل الفني لا تصبح ترجمة حياة، وإنما تأويل حياة. وصدق الكاتب غير الصدق بمفهوم مشاكلة الواقع، وكاتب لا بد له في الفن من الاختيار بين الأحداث والخواطر، وكاتب السيرة الذاتية لا يحكي كل ما حدث. على أن صدق الكاتب يستلزم أصالته في التعبير، وهذه ناحية فنية محضة، فلو أن كاتباً عبر عما في نفسه لما كان ذلك مرآة لصدقه وتجربته من الناحية الفنية^٣. واستنادا إلى هذا المفهوم، فإن الصدق الفني يستلزم إيمانا بالتجربة في معانيها الإنسانية، كما يراها كاتب السيرة الذاتية. وهو يتلاقى مع الصدق الخلفي. فإن ترجمة المرء لنفسه يجب أن تعتمد الصدق، وتعتمد الصراحة والتزام الأمانة والثبات حتى يكون من أصدق الناس فيما يروييه عن أحواله، ولهذا قال بعضهم إن السيرة دفتر الحسنات والسينات. الثناء على النفس إن أراد به الإنسان التحدث بنعمة الله أو أن يتأسى به غيره من أقرانه ونظرانه، فهذا لا بأس به. وإن أراد مجرد الخير، فلا بأس به، لكن الأولى تركه^٤. يرى إحسان عباس أن كاتب السيرة الذاتية لا يصور نفسه فحسب، وإنما يحكم عليها، ويحاول أن يتجرد من الرابطة العاطفية التي تشده بها، ويتساءل: إلى أي حد يمكن أن يكون هذا الكاتب صادقا؟ وهل من الممكن للصدق التام أن يتحقق فيها؟ ويحاول أن يجيب فيقول: الجواب على هذا التساؤل سهل لا يحتاج كثيرا من التدقيق، فالصدق الخالص أمر يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتية صدق نسبي، مهما يخلص صاحبها في السيرة الذاتية محاولة لا

^١ د/شوقي محمد المعاملي، السيرة الذاتية في التراث، ص ٢١

^٢ د/ يحيى إبراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص ١٣٧

^٣ عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، ص: ٢٢، ٢٣

^٤ مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين، ٩٦/٣٠، ٩٧، نقلا عن السيرة الذاتية في الأدب السعودي، ص ٤٣٨

أمراً متحقفاً^١. ومعانات كاتب السيرة الذاتية أشد، إنه يلجأ إلى تحليل الوقائع وتعليلها، وإنه يعاني تجربة الخلق. إنه يلتزم الحقيقة فيما ينقله من ماضي حياته، والتذكر ليس أمراً سهلاً ذلولا، بل هو عملية شديدة التركيب والتعقيد^٢.

ولا شك في أن أدب السيرة الذاتية فضاء تنشط فيه الذاكرة الفردية، وفيه يمارس الأديب الكاتب عملية استرجاع تفاصيل حياته بشكل مكثف، لذلك فإنه غالباً ما يلجأ إلى عملية الربط بين ذكرياته الواقعية في محاولة منه لسد ما يصادفه من فراغات في سرد حياته المسترجعة، ومن ثم فإن الإبداع في رواية السيرة الذاتية يقوم على المزج بين حمولة الذاكرة الفردية من الواقع وبين عنصر الخيال. وتعكس كتابة رواية السيرة الذاتية واقعاً ذاتياً غير مطلق، وذلك لكون هذا الواقع يجمع بين الحقيقة والتخيل في حدود معينة، وهي ازدواجية تقيم صلب الحياة الواقعية للذات الفردية، ولهذا السبب نرى كاتب السيرة الذاتية يجد نفسه مضطراً إلى ترميم ماضيه الواقعي المسترجع بنسج تخيلى، لكن بشرط ألا يخل بدعامة الصدق. قد يفهم البعض أن المخيلة قد تسمح لفضاء خيالنا أن يبتدع أحداثاً ووقائع لم تقع لنا، وهذا لو حدث فإنه يخرج برواية السيرة الذاتية عن مسارها، ويحولها إلى جنس أدبي آخر، فالمخيلة التي تفتح فضاء خيالنا، لا تعني استحداث شخصيات أو أحداث لا وجود لها في الواقع. وإنما هي تضيء بعض الجوانب التي غشيها ضباب الذاكرة، فحجبها عن الإدراك، أو لطرح بعض الاستفسارات عن بعض الأمور التي تلبدت من حولها الغيوم في أعماق الذاكرة.

إن الذاكرة الواقعية المعتمدة على مزج الحقيقة بالخيال لهي الأرض الخصبة التي تنبت فيها السيرة بسلاسة، لتكون قادرة على نقل تجربة صاحبتها إلى الآخرين، ولتشد انتباه القارئ ليتعاطف معها أو ينفر منها، والسيرة الذاتية الفنية بشكل أو بآخر هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة، على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والروح. وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافياً كاملاً عن تاريخه الشخصي، على نحو موجز حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة، وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض وحسن التقسيم وعذوبة العبارة وحلاوة النص الأدبي وبث الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات وفيما يتمثله في حوار، مستعيناً بعناصر ضمنية من الخيال لربط أجزاء عمله حتى تبدو ترجمته الذاتية في صورة متماسكة محكمة على ألا يسترسل مع التخيل والتصور حتى لا ينأى عن السيرة الذاتية. وإن الشرط الأهم لاستخدام الخيال في رواية السيرة الذاتية هو ضبط الخيال، وذلك لأن كاتب السيرة الذاتية إذا أغرق في الاسترسال مع التخيل فإنه يدخل في إطار التحريف، أو يكون عمله أقرب إلى الرواية العادية والأعمال التخيلية منه إلى السيرة الذاتية، فالصدق يجعل من رواية السيرة الذاتية وسيلة لإقامة جسور من التعاطف والصدقة بين القارئ والكاتب، ولكي يستطيع الكاتب أن يكسب ثقة القارئ لا بد من أن يلتزم الصدق والصراحة^٣. الصدق المطلق لا يمكن تحقيقه في السيرة الذاتية لأن الإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه. ومعرفة الإنسان أمر يفوق طاقته والآراء المتعلقة بالإنسان لم تعنه على معرفة نفسه وقد وضّح أحمد أمين هذا الأمر إذ يقول في مقدمة الكتاب "حياتي": "ثم إن للنفس أعماقاً كأعماق البحار، وغموضاً كغموض الليل، فالوعي واللاوعي، والعقل الباطن والظاهر، والشعور البسيط والمركب، والباعث السطحي والعميق، والغرض القريب والبعيد - كل هذه وأمثاله يجعل تحليلها صعب المنال، وفهمها أقرب إلى المحال"^٤. وقد يستطيع الإنسان أن يقول الحق في سيرته ولكنه لا يستطيع أن يقول كل الحق، يقول أحمد أمين: ولم أذكر فيه كل الحق، ولكني لم أذكر فيه إلا الحق، فمن الحق ما يرذل قوله وتنبؤ الأذن عن سماعه، وإذا كنا لا نستطيع عري كل الجسم فكيف نستطيع عري كل النفس؟"^٥.

^١ د/إحسان عباس، فن السيرة، ص ١١٣

^٢ د/ يحيى إبراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص ٥

^٣ <http://www.alukah.net/>

^٤ أحمد أمين، حياتي، ص ١

^٥ نفس المرجع، ص ٢

ثم هناك حوائل أخرى تحول دون تحقق الصدق. ومن النقد من يرى أن من العوامل التي تحول دون التزام الصدق ما يرجع إلى الذاكرة، وعملية التذكر نفسها ليست بالأمر اليسير، وتقوم على التداعي الحر، وهذا التداعي عملية شديدة التركيب والتعقيد، لأنها تعني تحويلا إلى الداخل، وتكثيفا كما تعني تغلغلا متواصلًا لتلك العناصر من حياتنا الماضية. ومن الأفات التي تصيب الصدق ما يحتمه الفن على الكاتب من الاستعانة بشيء من الخيال حتى يقدم في لوحة رائعة منسقة الخطوط والظلال، وهذا يؤدي في الأغلب إلى ابتعاده عن الصدق المحض^١. فالحياة نسيج صنعت خيوطه من حقيقة وخيال، وحياتنا وأفكارنا تصنع بعض أجزائها من وحي الخيال. ويميل يحيى عبد الدايم إلى أن الصدق المحض في السيرة الذاتية هو مجرد محاولة، وهو صدق نسبي وليس متحققًا، لأن هناك عوائق تعترض سبيل المترجم لنفسه، وتحول بينه وبين نقل الحقيقة الخالصة. ويرى أيضا أن من عوامل تشويه الحقيقة عوامل واعية إرادية كالترفيف والتمويه حين يعتمد كاتب الترجمة الذاتية إلى إخفاء ذاته أو إلى العجب بها. ومن الحوائل دون نقل الحقيقة الخالصة عوامل أخرى لا إرادية، كالحياء الطبيعي، والنسيان الطبيعي، فنحن ننسى أحداث الماضي البعيد ولا نذكر منها إلا ما ترسب في نفوسنا الأهمية الخاصة. فالإنسان يحجم عن تعرية نفسه حياء مهما كانت جرأته على الصراحة. ويخلص يحيى عبد الدايم إلى القول: وعلى ذلك، فإن تمام الصدق لا يأتي في الترجمة الذاتية، إذ لا بد أن تسقط من الكاتب أشياء أثناء كتابته. ومن خلال إدراك هذه الحقيقة يبدو لنا أن دعوى الصدق قوية للغاية، إذ ليس في وسعنا أن ننقل الحقيقة بأكملها^٢. ويذهب ماهر حسن فهمي إلى أن فكرة التعري الخالص بعيد بعد عالم المثل بقدر اقتراب السيرة الذاتية من هذا المثل البعيد تكون قيمتها الموضوعية. ويشير إلى أنه من المسلم به الذاكرة تنسى كثيرا مما يسبب لصاحبها الألم، وتعني كثير مما يسبب له لذة التذكر، ويذهب إلى أنه من المؤكد أن الذاكرة لا تنسى فقط، وأنه إذا كان هناك نسيان غير مقصود، فهناك أيضا نسيان مقصود يهرب به صاحبه من الصفحات السوداء في سجل حياته، ويهرب به من ضروب النقص التي يعانيتها، ويهرب به أخيرا من الحرج فيما يتصل بعلاقاته مع الآخرين^٣. أما محمد عبد الغني حسن فيرى أن السيرة الذاتية مظنة الإغراق والمغالاة غالبا، على أنه عاد فطرح بعض التساؤلات، ومنها هل يستطيع إنسان أن يكتب عن نفسه ما لا يود أن يراه الناس منه ويعرفوه عنه؟ وهل يستطيع إنسان أن يبدي نفسه للناس على سجيته، وفي مبادئه من غير أن يحاول ترميم العيوب التي لا يحب أن يطلع غيره عليها؟ ويجب بالنفي، لأن الخجل والاستحياء بمعناها من ذكر صغانر في حياتنا قد لا تشرف الصفحة التي نريدها ناصعة البياض^٤. فليس هناك سيرة ذاتية تمثل الصدق الخالص ولذلك كان جوته محقا حين سمى سيرته "الشعر والحقيقة" إشارة منه إلى أن حياة كل فرد إنما مزيج من الحقيقة والخيال^٥.

هناك ستة أسباب تجعل قصة السيرة الذاتية زائفة أو غير دقيقة:

١. الأول هو أننا ننسى، فحالما نشرع بكتابة تاريخ حياتنا يكتشف معظمنا أنه قد نسي جزءا منها.
٢. العامل الثاني المؤدي إلى تحريف الحقائق في السيرة الذاتية هو النسيان المتعمد.
٣. ليس النسيان الوسيلة الوحيدة التي تغير السيرة بفعالها وجه الحقيقة، فالوسيلة الأخرى هي الرقابة الطبيعية التي يمارسها العقل على كل ما هو كرهه وسمح، فحين يعود المرء إلى طفولته يتوقف، فإذا كانت تبعث على السخط، أو الشعور بالعار فلن تروي على الإطلاق.

^١ د/شوقي محمد المعامل، السيرة الذاتية في التراث، ص ٢٣

^٢ د/ يحيى إبراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص ٦ - ٨

^٣ د/ ماهر حسن فهمي، السيرة تاريخ وفن، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠

^٤ محمد عبد الغني حسن، التراجم والسير، ص ٢٣

^٥ Maurois .A, Aspects of Biograhly ,P 179

٤. الشكل الآخر للرقابة هو ما يفرضه الشعور بالعار، فقليلون هم الرجال الذين يمتلكون الشجاعة للتصريح بحقيقة حياتهم الجنسية.

٥. أن الذاكرة لا تخفق فحسب سواء بمرور الزمن، أو بالرقابة المقصودة، وإنما نخلق بعد الحدث، وتسدّد المشاعر، أو الأفكار التي ربما كانت السبب في حدوثه، والتي نختلفها بعد وقوعه.

٦. وثمة سبب أخير لافتقار السيرة الذاتية إلى عامل الصدق، وهو الرغبة المشروعة في حماية أولئك الذين شاركوا الأعمال التي نصفها، فحتى لو اعترز منا قول الحقيقة كلها عن حياتنا، فإننا لا نملك حق قول الحقيقة كلها عن حياة الناس الآخرين^١. من هذا نلاحظ في معظم ما يكتبه الناس عن أنفسهم ميلا شديدا إلى تجميل الواقع وتبرج الحقيقة.

قضية الصدق في السيرة الذاتية قضية زائفة، نظرا لطبيعة السيرة الذاتية نفسها. فمهما فعل الكاتب لا يستطيع أن يلفت من الحاضر الذي يكتب فيه، لكي يلحق بالماضي الذي يكتب عنه. فضلا عن أنه يفرض على الواقع شكلا لا يمكنه إلا أن يغير ذلك الواقع. وصراحة الكاتب قضية أخرى زائفة فالصدق والصراحة يمكن أن يكون مجرد هدف يسعى الكاتب إلى بلوغه. وقد يصدر الكاتب حكما خاطئا على ما يهم القارئ أو لا يهمه. قد يتحدث عن أشياء لا يتوقع أن يقف عندها القارئ، في حين يتأثر هذا الأخير بها في الواقع أكثر من غيرها^٢. ثمة إشكالية دقيقة تثيرها السيرة الذاتية التي تنطوي على شيء من الجرأة والاعتراف، فقد يكون هذا النهج سبيلا ممهدا لخدع القارئ وإقناعه بصدق السيرة من ألفها إلى يانها، في حين أن ما تم الاعتراف به ما هو إلا تمويه وزيف. وهذه اللعبة التي قد يمارسها بعض من يتصدون لكتابة السيرة الذاتية يصفها بعض النقاد بأنها "الصدق في عدم الصدق"^٣. إن كاتب السيرة الذاتية هنا يعبر في تجربته عما في نفسه من صراع داخلي، سواء أ كان تعبيرا عن حالة من حالات نفسه هو، أم عن موقف إنساني عام تمثله في حياته. فهي إفشاء بذات النفس، وبالحقيقة كما تمثلت في رؤيا الكاتب الإبداعية على أساس من التطور الذاتي في داخل النفس وخارجها. ومما هو جدير بالملاحظة أن السيرة الذاتية تنفرد من بين الأجناس الأدبية جميعها بضرورة وجود الصدق الواقعي أو الخلفي إلى جانب الصدق الفني الذي يلزم توافره في الأجناس الأدبية بعامّة. ذلك بأن النجاح في السيرة الذاتية لا يتعلق بالحقيقة وحدها، وإن كانت الحقيقة جوهرها، وإلا لأمكن إنسان يقوي على تعرية نفسه من كتابة سيرة ذاتية ناجحة، فلا بد إذن من جانبيين أصليين: جانب إنساني، وجانب فني، ويتجلى الجانب الإنساني في عمق الصراع الداخلي والخارجي^٤. على أن صدق الكاتب يستلزم أصالته في التعبير، وهذه ناحية فنية محضّة. فلو أن كاتبنا عبر عما في نفسه، ولكن من خلال صور تقليدية وتعبيرات مأثورة، لما كان ذلك مرآة لصدقه وتجربته من الناحية الفنية. فالمراد من الكاتب تصوير حقيقة أصيلة، لا تتفق في نواحيها الفنية مع صور أخرى، وهذه ناحية جمالية تستلزم القدرة الفنية^٥. فالصدق الفني يستلزم إيمانا بالتجربة في معانيها الإنسانية، كما يراها كاتب السيرة الذاتية.

١ اندرية مورا، أوجه السيرة (ترجمة ناجي الحديثي)، ص ١١٠ - ١١٥
 ٢ د، شامية أحمد أسعد، مقال أدب السيرة الذاتية، مجلة الفيصل، نوفمبر ١٩٨٢
 ٣ د/ عبد الله عبد الرحمن الحيدري، السيرة الذاتية في الأدب السعودي، ص ٤٥٠
 ٤ د/ ماهر حسن فهمي، السيرة تاريخ وفن، ص ٢٣٢
 ٥ محمد غنيمي هلال، المدخل إلى النقد الأدبي الحديث، ص ٧٧٦